

تعرفُ الجاحظ خلال نثره؛ البيان و التبیین

* فيروز حيرچي

** سيّد ابراهيم ديباجي

*** سيّد حسن ميربههاني

الملخص

هو ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ من الادباء الشهير في القرن الثالث للهجرة. انه حظي بذكاء وافر و مثابرة في العمل، و استمدَّ ببيئة مولده الجغرافية أي البصرة التي كانت ميناءً تجاريةً تتجول فيه الاجناسُ المختلفة و مذاهبُ شتى و الألسنة المتنوعة، و أيضا وقوعه في موقع تاريخي خاص أي عصر ازدهار الحكومة العباسية و رفعتها خاصةً عصر مأمون و هو عصر نشأة الثقافة الاسلامية. سنحت للجاحظ فرصة خلق المعالم الادبية على الاخص كتاب «البيان و التبیین». كتاب «البيان و التبیین» ذاتُ نشر خالص، واقعي، طبيعي، بعيد عن التكلّف، ذات بهجة، ساخر، صريح، شفاف، مشحون من الاستطراد و الاستشهاد بالشعر الجاهلي و الاموي، و معالم القصّاصين و الشواهد القرآنية عربية الصبغة.

الكلمات الدليلية: الجاحظ، النثر، الاسلوب، «البيان و التبیین»، العصر الذهبي، الأدب العباسي.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
رساله جامع علوم انسانی

* عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الاسلامیة، فرع علوم و تحقیقات بطهران.

** عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الاسلامیة، فرع علوم و تحقیقات بطهران.

*** طالب الدكتوراه فی جامعة آزاد الاسلامیة، فرع علوم و تحقیقات بطهران.

Mirbehbahani2125@Yahoo.Com

الكاتب المسؤول: سيّد حسن ميربههاني

تاريخ القبول: ٩١/٨/١٥

تاريخ الوصول: ٩١/٣/١٩

المقدمة

هو *ابوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ* من الادباء و الكتاب الشهير في القرن الثالث، مولده بصره و اختلّف في سنة ميلاده قيل وُلد بالبصرة سنة ١٥١٦م/٧٧٦م (جبر، ١٩٥٩: ١٧)، و قال *ياقوت الحموي*: «إنّ *الجاحظ* قال عن نفسه إنّهُ أسنُّ من *أبي نواس* بسنةٍ يعنى أنّه ولد سنة ١٥١٥م/٧٧٦م» (الحموي، ١٩٩٩: ٧٤). و نرجّح سنة ولادته ما بين مائة و خمس و خمسين للهجرة و مائة و ستين.

إنّهُ عمر طويلاً و عاصرَ كثيراً من الخلفاء العباسي من مهدي إلى مهتدي. ولد زمن مهدي العباسي و في زمن هادي كان طفلاً صغيراً، و كان شاباً في عصر *هارون* و شاهد الصراع بين *امين* و *مأمون* و حين نمت و اقتدّرت المعتزلة في عصر *مأمون*، بلغ *الجاحظ* الى كمال السنّ و الى مرحلة ادراك عقليّ و علميّ و عكف إلى الفلسفة و العلوم و كان من هواة المعتزلة.

في هذه الفترة و هي الشّق الثاني من حياة *الجاحظ*، تبدّلت حياة *أبي عثمان* من الحرمان و الفاقة إلى الغنى والثراء. و في خلافة *مأمون*، بلغت الحياة الاجتماعية أقصى درجة من الرخاء و الحضارة و كان *الجاحظ* على صلة فكرية ب*المأمون*، الذي كان يُكرّمه على عبقريته و اعتراله و *الجاحظ* بدوره كان يجلّ الخليفة لسعة ثقافته و ميوله الاعتزالية. و ايضاً شاهد *الجاحظ* قدرة الاتراك زمن تولية *المعتصم* عرش الخلافة العباسية و أدرك حكومة *واثق* و بعده *المتوكل* الذي أمر بترك النظر و الجدال، و هذا عصر هزيمة المعتزلة كما أدرك خلافة *المنتصر* و *المستعين* و *المعتز* و كان *الجاحظ* في هذه الفترات، كثير المال، عظيم النفوذ، في نعمة و بحبوبة.

عندما أخذت الايامُ تَدوّب من قوّته كانت سن *الجاحظ* متقدمة، فأثقله المرضُ و ألزّمه الفراش، «يروى عن *أبي العباس المبرّد* تلميذه و صديقه أنّه قال: دخلتُ على *الجاحظ* في آخر أيامه، فقلتُ له، كيفَ أنت؟ قال: كيف يكونُ من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمناشير ما شعر به و نصفه الآخر منقرس، لو طار الذباب بِقُرْبِهِ لآلمَهُ، وَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ ستّ و تسعونَ سنةً أنا فيها تُمُّ أنشد:

أترجُو أن تكونَ و أنتَ شيخٌ
لقد كذَّبْتَكَ نفسُكَ ليسَ ثوبٌ

كما قد كُنْتَ أيَّامَ الشبابِ
دريسٌ كالجديدِ مِنَ الثيابِ
(الحموي، ١٩٩٩: ١١٣)

حنّا الفاخورى يقول فى ترجمة الجاحظ: «ولد الجاحظ فى البصرة و لَمَّا شَبَّ أخذَ العلمَ عن المسجديين، ثمَّ عن خطباء العرب بالميرد ثمَّ عن رجال العلم فى بغداد من مثل الاصمعى و النّظام. ثمَّ إنصرفَ الى الكتابةِ و التأليفِ فطارت له شهرةٌ واسعةٌ فاستقدمه المأمونُ و أقامه على ديوان رسائله فلم يلبث فيه سوى ثلاثة أيامٍ، و اتّصل الجاحظ بابن الزيّات و كتب له و أهداه كتاب «الحيوان» ثمَّ اتّصل بابن ابى دؤاد، و قدّم له كتاب «البيان و التبيين» ثمَّ اتّصل بالفتح بن خاقان و كانت له معه مودةٌ ثمَّ مات الجاحظ و قد فجع و أصيب بداء النقرس» (الفاخورى، ١٩٨٧: ٥٥٦).

عصر الجاحظ

كان الجاحظ فى العصر الذهبى للأمة العربية؛ عصر هارون و المأمون و العلوم و الآداب و الفنون و العقول فى نشاط. عصره علم و الثقافة و الحرّية الفكرية و المال تلمع و جوهه فى عيون أهل الفضل.

عصر الجاحظ، عصر الحرّية الدينية أيضاً التى سمحَ بها المأمونُ، فكان يُجادل الناس فى امور الدين و يسمحُ لهم بالدفاع عن معتقداتهم، و امتدّت هذه الحرّية إلى تناول مسائلٍ خطيرةٍ من الدين و التفسير حتى كان المجوس انفسهم يعارضون علماء المسلمين دون حرج. و كان الاعتزال الذى قام فى عصر الجاحظ و ليد حرّية الفكر هذه. و قد نال الجاحظ من هذه الحرّية نصيباً فكان يُعلّق على آراء المفسرين بجرأةٍ و كان معتزلياً فى مذهبه، يُحكّم العقل فى مسائل الايمان و ينتقد بعض التفاسير ممّا يعارض العقل و المنطق فليس من المستغرب أن يُتهم فى دينه. و عصره عصر انقلاب فكرى فى شؤون الحياة و الفكر و لذلك لم يغفل الجاحظ عن شىءٍ ممّا كان يجرى فى أيامه، تراه يلمّح إلى النقل و الاقتباس عن الامم الاخرى و يبيّن أثرهما فى الثقافة.

تعلم الجاحظ

كانت البصرة في ذلك الوقت كعبة العلماء و حلبة الفقهاء و منتدى الادباء و حاضرة البرّ و البحر. و العلوم و المعارف أقوى اسباب الاتصال بالخلفاء و الوزراء و الولاة فوجد بيئةً صالحهً للعلم و مجالاً واسعاً للدرس، و حافظاً قوياً للتحصيل فأكّـب الجاحظ على العلم و اولع بالعلم منذ صغره؛ فلم يترك فناً من الفنون و لا علماً من العلوم المعروفة في عهده إلا ضرب فيه بسهمٍ و أخذ منه بأكبر نصيبٍ. و رقيته العلمي يـرجع إلى أسباب و هي:

١. دكاكين الوراقين: فكان يكتري دكاكين الوراقين (اصحاب المكتبات) في الليل، ليطالع ما فيها من كتبٍ و يبيت فيها للنظر و يعمل في النهار لتحصيل قوت يومه.

٢. مسجد: أتيح للجاحظ بفضل ذكائه المتوقع و حافظته القوية، و بسبب نشأته في البصرة أن يتردد إلى حلقات المساجد، و أقبل إليهم يجالسهم و يأخذ عنهم الكثير، يجتمع في مسجد البصرة طائفة حسنة من العلماء و أرباب الأدب و النحو و اللغة عرفوا بـ "المسجديين".

٣. مربد: و كثيراً ما كان يذهب إلى مربد البصرة و هو إذ ذاك أشبه بسوق عكاظ في الجاهلية، يلتقى فيه الشعراء و الخطباء و الرواة و النسابون و يعرضون ثمرات قرائحهم و نتاج أفكارهم فيأخذ الفصاحة عنهم شفاهاً و غزرت لذلك ألفاظه و قويت لغته.

٤. المجالس الادبية: كثيراً من الأشراف و العظماء المحبين للعلم و الادب كان يعقدون المجالس الادبية، حول الشعر و اللغة و الكلام و الصرف و النحو و استفاد الجاحظ من تلك البيئات.

٥. مخالطة الناس: و كان إلى جانب ذلك كثير الاختلاط بالناس يعاشر صغارهم و كبارهم و فقراءهم و اغنياءهم، و كل طبقة منهم و افادته ذلك خبرة واسعة و تجارب نادرة. و قد خالط كثيراً من مترجمي الفرس و السريان و قرأ جميع ما ترجم في أزمان المنصور و الرشيد و البرامكة و المأمون، فأحاط بجميع الثقافات المختلفة من عريية و فارسية و يونانية و هندية. فكان لذلك أثر واضح في ثقافته و إنتاجه فقد مزج الفلسفة بالأدب و الفكاهة.

و كانت إقامته في البصرة إقامة المترفين لعلمه و أدبه و ذكائه و فطنته، مما حبه إلى الولاة و الأعيان و رؤساء الموالى. فأغدقوا عليه العطايا و المَنح بسبب ما كان يصنّفه لهم من الرسائل و الكتب التي كان يؤيد فيها مذاهبهم و ينقضُ آراءَ مخالفيهم، فَيُرضيهم بذلك من ناحية و يدلُّ على فضله و أدبه و قدرته من ناحية أخرى. يعْتَبِرُ حنّا الفاخورى الشخصيات الثلاثة للجاحظ:

١. شخصيته الأخلاقية: كان الجاحظ مطبوعاً على الطُرف و الفكاهة، ميّلاً الى التفاؤل و كان واقعيّاً حريصاً على الوقت، حلّو الحديث، سريع الجواب و النكتة، ساخرأ، يحبُّ اللّهو.
٢. شخصيته الدينية: كان الجاحظ ديناً و لكنّه لم يكن من المتشددين في أمر الدين و كان معتزليّاً جاحظياً.
٣. شخصيته الادبية: يُريد الجاحظ الحرّية في الأدب كما يُريدها في اللغة. يُريدُ المناسبة بين الالفاظ و المعانى و مراعاة مقتضى الحال كما يُريدُ التنقيح و التهذيب في الكتابة من غير مبالغة و وضوح الدلالة و الايجاز» (الفاخورى، ١٩٨٧: ٥٥٦).

علمه و أدبه

إنَّ الجاحظ قد أحاط بجميع أنواع الثقافة المعروفة في زمنه، من إسلامية و فارسية و يونانية و هندية. و لذلك اتفق الرواة على أنه لم يكن في عهده رجلٌ أوسع معرفةً منه و لا أمتع أدبا و لا أبلغ عبارةً، و لا اظرف فكاهةً و لا أكثر تصنيفاً و لا أوضح حجةً و برهاناً. هذا قولُ حنّا الفاخورى في مكانته الأدبية: «أخذ اللغة عن الاصمعي و ابى زيد الانصارى و ابى عبيدة معمر بن مثنى و أخذ النحو عن الأخفش، و الحكمة عن صالح بن جناح اللّخمى، و علم الكلام عن النّظام ابراهيم بن سيار البلخى، و تردّد الى مجلس الادباء كابن وهب و ابن الزيات فوجد عندهم على ما قال هو نفسه، ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر و الأدب و بهم عرف ماهية الشعر و قام بحق الأدب و الكتابة. و يقال إنه كان يعرف الفارسية و كان مولعاً بالكتاب يكثرُ من مطالعة المؤلفات الفكرية و الفلسفية» (الفاخورى، ١٩٨٧: ٥٦٠).

لَقَّت آثارُ الجاحظِ رواجاً عظيماً لِعِدَّةِ أسبابٍ و هي سِعةُ علمه، كثرةُ مؤلفاته، اعتزاله، جرأته في النهوض على التقاليد، نظرةُ النّقدى، اتّساعُ مواضيعه، تنوعُ موضوعاته، قوّته في تصوير اخلاق عصره، اسلوبه السّخري، مزجُه الجِدَّ بالهزل، و تبسيط المسائل العلمية و الفلسفية في اسلوبٍ واضحٍ يَصْطَبِغُ بالصبغةِ العربيّةِ.

احمدحسن الزيات من مفكرى العرب المعاصر يعدُّ الجاحظ "نابغة العرب" و "جامع الجدّ و الهزل" وصاحبَ تأليفاتٍ وفيرةٍ يقولُ بشأنه: «ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصفَ للقارئ ما لنا بغة العرب و قُلتير الشرق من الأثر في الأدب؛ و بحسبنا أن نقولَ أنّه تميّزَ من أنداده بجزارة العلم و قوّة الحجّة و استقصاء البحث و شدّة العارضة و بلاغة القول، و أنّه تبحّرَ في علم الكلام و خلطه بفلسفة يونان و انفراد دون المتكلمين بمذهبٍ في التوحيد شايعه عليه كثيرٌ منهم فسَمّوا بالجاحظيّة و شارك في سائر العلوم و كتبَ فيها كتاباً محققٍ ضليعٍ و هو أوّل عالمٍ عربىّ جمعَ بينَ الجِدِّ و الهزلِ و توسّعَ في المحاضرات و أكثرَ من التصنيفِ و كتبَ في الحيوانِ و النباتِ و الاخلاقِ و الاجتماعِ» (الزيات: ٢٥٨).

و قال عبدالسلام هارون من الباحثين حول الجاحظ: «الجاحظ امامٌ قدُّ من أئمة البيان في العربية و ليس من الإسرافِ و المغالاةِ أن نعدّه زعيمَ البيانِ العربىّ نطلق القولَ فى ذلك اطلاقاً» (الجاحظ، ١٩٦٩: ٣).

هكذا أودع الجاحظُ خزائنَ الأدب العربىّ مجموعةً من المؤلفات البارزة و قد تنوّعت بين العلم و الأدب و الاجتماع. و لعلّ ذلك يعودُ إلى عواملٍ أهمّهما طولُ عمره، و صبره الدائب على تحصيل العلوم، و نبوغه و بيئته الّتى وفرت له العلمَ و المعلمين. و لذلك يعتبرُ أحدُ نوابغ الدنيا الذين لا وجودَ الدهرِ بمثلهم إلّا بعدَ أجيالٍ و قرونٍ.

اسلوب الجاحظ

اسلوب *الجاحظ* مرآة صافية لطبعه و رسم و ضاح لألوان ثقافته سجّل فيه خطرات عقله. *الجاحظ* معروف في اسلوبه بخصائص لم يسبق إليها و بأخرى سبقه غيره إليها فهو في الاولى مبتدع مخترع و في الثانية مقلد متبع.

أما الخصائص الاولى التي له فيها فضل السبق و فخر الابتداع فهي:

الخاصة الاولى: مزجة الحقيقة الجافة بالفكاهة الخلوّة و الجدّ المُسَمِّم بالضحك المؤنس و البرهان المقنع بالتهكم الموجه. و من اسباب جمع *الجاحظ* بين الجدّ و الهزل في أسلوبه حرصه على أن يفهم الناس عنه و احتفاله برضى العامة عليه و إقبالهم على قراءة ما يكتب.

الخاصة الثانية: تأثره بأساليب الخطابة و المنطق و مظاهر ذلك التأثر بادية في وجوه عدة منها:

١. التكرار: يرى *الجاحظ* التكرار من خصائص الخطابة حيث يذكر في كتابه «البيان و التبيين»: «و ما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض اللفاظ و ترداد المعاني عياً» (ج ١: ٥٨)

٢. المذهب الكلامي: هو أن تورّد حجة قاطعة عند المخاطب بعد تسليم المقدمات كما جاء في «البيان و التبيين» (ج ١: ٨١).

الخاصة الثالثة: قصر الفقرات و اوزان العبارات و الموسيقى و الازدواج، و إنما يلدّ من نثر *الجاحظ* العقل و الشعور و الاذن.

الخاصة الرابعة: الإفتنان في الأسلوب: من خبر إلى استفهام، و من استفهام إلى تعجب، و من تعجب إلى أمر. و هذه من آثار الاسلوب القرآني كقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْضُونَ عَلَيْهَا قَدْ نَجَّيْنَا قَوْمَ نُوحٍ إِذْ هُمْ أَقْرَبُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الطُّوفَانُ وَنَجَّيْنَا لُوطَ بْنَ مَرْيَمَ إِذْ هِيَ بِبَيْتِهَا تُسَلِّمُ إِلَيْنَا إِذْ هِيَ تَدْعُو نَحْنُ نَكْتُمُ الصَّوْتِ لَهَا وَهِيَ كَانَتْ إِحْسِنُ الصَّلَاةَ لَهَا وَهِيَ كَانَتْ تَزَكَّى وَنُوحٌ رَحِيمٌ﴾ (فصلت / ٤٠)

خبر، فاستفهام، فامر، فخبر و أورد *الجاحظ* هذه الخاصة في رسالة «الحاسد و المحسود» في قصة «أخوة يوسف».

الخاصة الخامسة: الإستطراد و ذلك نتيجة اطلاعه الواسع بعلوم متنوعة و ثقافات متعددة.

الخاصة السادسة: استقصاءه في البحث فهو يتتبع المعنى و يقلبه على وجوهه المختلفة و يَظَلُّ يُولدُهُ حَتَّى لا يترك فيه قولاً لقائلٍ. أما الخصائص التي يشركه فيها غيرُه فَمَهَي السهولة، و الإعتراض بمثل قوله "أبكاك الله"، "عزك الله"، ثمَّ الإسهاب، ثمَّ السجع.

فاسلوب *الجاحظ* مِن نوع أدب الفكر لا أدب العواطف، قوامه الترتيب المنطقي و التنسيق العقلي و التنوع الفكري. يَضَعُ *الجاحظ* الألفاظَ في موضعها و يُسَبِّغُ على الجملة روعةً البلاغة و حسن النظم و كان هدفُه الوضوح بعيداً عن الغرابة و التعقيد. شعارُه: "لِكُلِّ مقام مقال".

فليس هو بالرجل الخياليّ إنّه رجل الفكر و المنطق. تعابير *الجاحظ* تنفذُ الى القلوب. «فقال ثابت بن قرّة (٢٢١-٢٨١هـ): ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفسٍ فأنه:

عَقِمَ النساءُ فلا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ
فَقِيلَ: أَحْصِ لَنَا هَوْلَاءِ الثَّلَاثَةِ قَالَ: أَوْلَهُمْ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَ ثَانِيهِمُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَ ثَالِثُهُمُ ابْنُ عَثْمَانَ الْجَاحِظُ» (الحموي، ١٩٩٩: ١٦).

مؤلفات الجاحظ

ليس بين كُتَّابِ العربية مَنْ أنتج إنتاجَ *الجاحظ* في التصنيف فما وضع كتاباً إلا و أقبلَ الناسُ على قراءته و دراسته و لا يلبث أن ينشرَ في الأقطار العربية الإسلامية، ثمَّ يصبح حديث الأندية العلمية و المحافل الادبية و موضوع درس في حلقات الدروس بالمساجد و المدارس و موضوع إعجاب *بالجاحظ* و أكابر لعلمه و أدبه و لقد ساعده على هذا الإنتاج معارفُه الواسعة و ذهنه الصافي و قريحته الفياضة.

جاء في مقدمة كتاب «المحاسن والأضداد»: «ترك الجاحظ زهاء ثلاثمائة وستين مصنفاً في الأدب و الاجتماع و الكلام و الفلسفة و الدين و الشعر و البلاغة و الأخلاق و غيرها من صنوف العلم و المعرفة، و لكن الزمان بتقلباته السياسية و الإجتماعية و الفكرية قد أتى على معظم هذه الكتب و لم يبق منها إلّا قطرة من بحر و غصناً من أيكة» (الجاحظ، ٢٠٠٦: ١٢).

و أهم تلك الكتب «البيان و التبيين» و يظهر أنه صنفه في أخريات حياته و هو أول كتاب جامع للأدب، و لا يكون في المعتزلة أفصح منه.

اتجاهه السياسي

القرن الثاني و القرن الثالث للهجرة عصر ازدهار الثقافة الاسلامية، و الجاحظ مرآة زمانه. دليل اعتراضه على الشعبية يرجع إلى ربطه الوثيق مع الامراء و الحكماء في العصر العباسي. آراءه تأثر كثيراً من إرادة الخلفاء. فمخالفته للشعبية - مع أنه كان من الموالي - يرجع إلى هذا الترابط مع الخلفاء.

ليس في الحقيقة من المقدر أن يُحصَر الجاحظ في الإتجاه السياسي الخاص؛ في المثل الشعبية أو ضد الشعبية. وجهة نظره للشعبية مولود اقتضاءاته الخاصه للاجتماع. هو لا يطمح إلى اكتساب القدرة بل هو اديب و مورخ و عالم اجتماعي و لذلك لا تُحدّد شخصيته، كأنه عامل في سلوكه السياسي عمله في سلوكه الأدبي، و تابع رعاية مقتضى الحال للمخاطب. إنه نقل كل ما رأى و ما كانت عنده المقدمة المنطقية للوصول إلى النتيجة. فكان باحثاً محققاً محايداً.

اتجاهه الكلامي

إن الجاحظ ديني و يظهر شعوره الديني في جميع آثاره، و لكنه ليس من المتشددين في أمر الدين، و كان معتزلياً يعتمد على العقل و كان له فرقة خاصة في المعتزلة تدعى «الجاحظية» و خلاصة مذهبه تقوم على هذه المواضيع: نفي الصفات عن الله، خلق

القرآن، المعارفُ كُلُّها طِبَاعٌ ضَرُورِيَّةٌ، أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً بل يصيرونَ إلى طبيعة النار، لا يعدم اللهُ الأجسامَ بعدَ وجودها. و على الجملة آراء الجاحظٍ منهجٌ شكٌّ فى دراسة مشكلة الحياة و تفسيرها، و ربّما كان واضحٌ «علم الشك المنهجي» الذى نادى ديكرت فيها بعدَ بقرونٍ عدّة.

يقول الدكتور على بوملحم بشأن الجاحظ: «إنَّ الجاحظَ لم يكتُب أدباً خالصاً أو صافياً فيما نَدَرَ. لقد كانَ رجلُ فكرٍ فى المرتبة الاولى و رجل أدبٍ فى المرتبة الثانية، و لقد عَبَّرَ عن فكره بأسلوبٍ ادبى. فَجَمَعَ بذلك بينَ الفكر و الأدب و لكن دارسيه المعاصرين اقتصروا على الناحية الأدبية عنده و لم يفطنوا أو لم يَهْتَمُّوا بالناحية الفكرية و هى الناحية الأهم و الغالبة عليه» (الجاحظ، ٢٠٠٤: ٥).

التعريف بكتاب «البيان و التبیین»

هو كتابٌ فى الأدب من آخر ما ألَّف الجاحظ، يتضمَّنُ مختاراتٍ من الأدب من آيات قرآنية و حديثٍ و شعرٍ و خطبةٍ و حكمةٍ، و مَزَجَ الجاحظُ فى كتابه علوم البلاغة بالأدب و التاريخ. قدَّم الجاحظُ هذا الكتابَ إلى القاضي احمد بن أبى دؤاد فأعطاهُ القاضي خمسة آلاف دينارٍ.

و قد أجمع المتقدمون من أكابر العلماء و الادباء على أن كتاب «البيان و التبیین» من أفضل ما وُضِعَ فى الأدب. قال عبد السلام هارون فى تحقيق كتاب «البيان و التبیین»: «إنَّه ليس يُوجَدُ أديبٌ نابِهٌ فى العربية لم يسمع بهذا الكتاب أو لم يفد منه و قَلَّما نجدُ أديباً من المحدثين لم يتمرس بما فيه من أدب» (الجاحظ، ١٩٤٨، ١: ١٤).

و قال ابن رشيقي القيروانى: «و قد استفرغ ابو عثمان الجاحظ و هو علّامة وقته، الجهد و وضع كتاباً لا يبلغ جودةً و فضلاً ثمَّ ما ادعى احاطةً بهذا الفنِّ لكثرتِه و أنَّ كلامَ الناسِ لا يُحيطُ به إلا الله عزوجل» (قيروانى، ١٩٨١، ١: ٢٥٧).

أمَّا ابن خلدون المغربي فيبدي لنا رأى القدماء فى هذا الكتاب إذ يقول: «و سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أنَّ اصول هذا الفن و أركانه أربعة دواوين؛ و هى «أدب

الكاتب «لابن قتيبة، و كتاب «الكامل» للمبرد، و كتاب «البيان و التبيين» للجاحظ، و كتاب «النوادر» لابي علي القالي، و ما سوى هذه الأربعة فُتَبَّعَ لَهُمَا و فرعٌ عنها» (الجاحظ، ١٩٤٨، ١: ٦).

اسلوب كتاب «البيان و التبيين»

طريقة الجاحظ سهولة العبارة و جزالة اللفظ، و تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مَقْفَاةٍ أو مُرْسَلَةٍ. و زيادة الإطناب في الألفاظ و الحمل و الإستطراد و مزج الجدّ بالهزل لِدْفَعِ سَأْمَةِ الْقَارِئِ و تحليل المعنى و استقصائه و تحكيم العقل و المنطق و الإعتراض بالجُمْلِ الدَعَائِيَّةِ.

وَ اهْتَمَّ الْجَاحِظُ بِإِرْسَاءِ دَعَائِمِ النَثْرِ الْفَنِيِّ فِي كِتَابِ «البيان و التبيين»، و تناول معظم فنونه مِنْ خُطَابَةٍ و رسائلٍ و وصايا و مواعظ. كذلك كان للشعر و نقده نصيب لا ينكر ففيه تحدث الجاحظ عن قضية السرقات الشعرية و الطبع و الصنعة و الصدق و الكذب. يقول عبدالسلام هارون حول نثر الجاحظ في «البيان و التبيين»: «إنَّ ذَأْبَ الْجَاحِظِ فِي تَأْلِيْفِهِ أَنْ يَرْسُلَ نَفْسَهُ عَلٰى سَجِيَّتِهَا، فَهُوَ لَا يَتَّقِيْدَ بِنِظَامٍ مُحْكَمٍ يَتْرَسِمُهُ وَ لَا يَلْتَزِمُ نَهْجًا مُسْقِيْمًا يَحْذُوهُ، وَ لِذَلِكَ تَرَاهُ يَبْدَأُ الْكَلَامَ فِي قِضِيَّةٍ مِنْ الْقِضَايَا ثُمَّ يَدْعُهَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ لِيَدْخُلَ فِي قِضِيَّةٍ أُخْرٰى، ثُمَّ يَعْوْدُ إِلَى مَا اسْلَفَ مِنْ قَبْلُ وَ قَدْ كَانَتْ هَذِهِ سَبِيْلًا كَثِيْرًا مِنْ عُلَمَاءِ دَهْرِهِ؛ كَمَا أَنَّ عَلُوَّ سِنِّهِ وَ جِدَّةَ التَّأْلِيفِ فِي تِلْكَ الْاَبْحَاثِ الَّتِي طَرَفَهَا، كُلُّ اَوْلٰئِكَ كَانَ شَفِيْعًا لَهُ فِي هَذَا الْاِسْتِرْسَالِ وَ الْاِنْطِلَاقِ» (الجاحظ، ١٩٤٨، ١: ٦).

على أي حال هذه من أهم خصائص نثر الجاحظ في كتاب «البيان و التبيين»:

١. إثارة الفرح في القارئ و السامع

٢. الاستطراد

٣. الاستشهاد بالشعر الجاهلي

٤. الاستشهاد بأشعار الخوارج و خطبها

٥. الاستشهاد إلى آثار القصاصين

٦. الاستشهاد بأثر الزُّهاد

٧. الغموض النثرية

٨. فقدان النظم و عدم التسلسل المنطقي في نثره

٩. وجود تعابير الفارسية في نثره

١٠. دراسة في علم الحديث و القراءة

١١. الاستشهاد بالقرآن.

مضمون كتاب «البيان و التبيين»

«البيان و التبيين» ما هو إلا تلبيةً لحاجات ذلك العصر، و تعبير صادق عن اهتمامات أهله بفنون النثر عامّةً و بالخطابة على وجه الخصوص، فكما اهتمّ فلاسفة اليونان قديماً بتعليم أتباعهم أساليب اللغة و طرق التلاعبِ بألفاظها كذلك اهتمّ الجاحظ بتعليم مريديه فنّ القول و الأساليب المجادلة و طرق الإحتجاج ليتمكنوا من منافحة أهل الفرق الأخرى من سنيين و شيعة و خوارج، و أهل الملل الأخرى من مجوس و زنادقة و شعوبيين. فالجاحظ اذن يُعبّر عن ضمير أهل عصره و حاجاتهم بمختلف انتماءاتهم الدينية و السياسية. فالخطابة في ذلك العصر أصبحت تُنافسُ الشعرَ بل و تفوق عليه كثيرٌ من الأحيان، و قد أورد الجاحظُ مقولةَ *أبي عمرو بن العلاء* تُبيّنُ انحدارَ مكانة الشاعر عمّا كانت عليه في الجاهلية، و مبررات تفوّق الخطيب و بيّن بلاغة الخطبة و بلاغة الشعر و أيّهما افضل و كلّ ذلك ان ذلّ، فإنما يدلُّ على شدة الإهتمام بالخطبة في عصر الجاحظ و كيف كتّابه ترجمان ذلك الإهتمام و اول و اضعف مُصنّفاته.

يبحث «البيان و التبيين» في الأجناس الأدبية المعروفة آنذاك، و يهتمّ بالكشف عن أسرار جمالها و يبيّن طرق تجويد الأعمال الفنية التي يتحدّث عنها.

في غياب المنهج العلمي المنظم و تناثر المعلومات و تباعد المباحث في الكتاب، يصعب على الدارس أن يحصر جميع مباحثه و دقيق قضاياه و لكن يمكن القول بأن الكتاب من

أكبر الموسوعات العربية التي عُنيَت باللغة العربية و آدابها. فهو مصدر من مصادر الدرس البلاغي و اليه يرجع في درس الفصاحة و البيان و البلاغة.

«البيان و التبيين» من مصادر الدرس اللغوي و مرجع في دراسة تاريخ اللغة العربية و تطوّر مفرداتها و فروق دلالاتها، و التعرف على لهجات القبائل و خصائصها. نجد في هذا الكتاب ما ينطوي تحت علم اللغة التطبيقي و علم اللغة الاجتماعي و علم اللغة النفسي بل نجد في «البيان و التبيين» اثبات التطابق الموضوعي بين الحقائق اللغوية المستخلصة من «البيان و التبيين» و تلك التي تناولها كتب اللغة الحديثة في علم الاصوات.

«البيان و التبيين» من مصادر الدرس الأدبي إذ أنه جامع لكثير من أنواع البيان و فنونه؛ من نظم و نثر، من اشعار و اخبار و خطب و رسائل و أمثال و قصص و مواعظ و الكثير من جوانب حياة الادباء و اخبارهم. بالاضافة إلى أنه من المصادر الهامة التي يعتمد عليها في درس أدب المعتزلة.

الكتاب من مصادر الدرس النقدي الهامة، حيث تناثرت فيه الآراء و النظرات النقدية التي أورد الجاحظ فيه و عالَج الجاحظ الكثير منها.

و من القضايا التي اعتنى بها الجاحظ في كتاب «البيان و التبيين»، قضية اللفظ و المعنى و هي من القضايا المشتركة بين الشعر و النثر و للجاحظ رأى عام فيهما، و حدّد الجاحظ موقفه من هذه القضية حينما قال: «إن المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجميُّ و العربيُّ و البدويُّ و القرويُّ و إنما الشأن في إقامة الوزن و تميز اللفظ و سهولته و سهولة المخرج و في صحة الطبع و جُود السبك» (الجاحظ، ١٩٦٩، ٣: ١٢١) و بتحيز الجاحظ الى جانب اللفظ بدأت المناقشات في هذه القضية و اختلف الآراء فيها ما بين متحيز للفظ أو للمعنى أو اتّخاذ موقف وسط. أمّا الجاحظ فَبَقِيَ مدافعاً عن موقفه من هذه القضية.

الحديث عن الألفاظ المفردة و صفاتها و عن الحروف و الأصوات، ثمّ يتحدّث عن الاسلوب و عن وجوب التناسب بين اللفظ و المعنى في السخف و الشرف. إهتم الجاحظ

فى «البيان و التبيين» برَبَطِ العملِ الأدبى بصاحبه، كذلك يُوصى الخُطْبَاءُ بِضرورةِ درسِ حالاتِ المستمعين و تقديرِ حالاتهم النفسية و مراعاةِ المقامِ الذى يخطبُ فيه. يُلخِّصُ الدكتور طه حسين مضمونَ كتابِ «البيان و التبيين» فى أربعةِ فصولٍ قصارٍ: ١. الكلام على صحةِ مخارجِ الحروفِ ثُمَّ على العيوبِ الَّتى سببها اللسانُ أو الأسنانُ، ما قَدْ يُصيبُ الفمَ مِنَ التشوّه.

٢. الكلام على سلامةِ اللغةِ و الصلةِ بينِ الألفاظِ بعضها و بعض، و العيوبِ الناشئةِ مِنْ تنافرِ الحروفِ تنافرًا يمجّه السمع.

٣. الكلام على الجملةِ و العلاقةِ بينِ المعنى و اللفظِ، ثُمَّ على الوضوحِ و الايجازِ و الاطنابِ و الملاءمةِ بينِ الخطبةِ و السامعينَ لها، و الملاءمةِ بينِ الخطبةِ و موضوعها.

٤. الكلام على هيئةِ الخطيبِ و إشاراته «حسين، ١٩٨٢، ٤٨٢: ٢).

و هذا أهمُّ مباحثِ كتابِ «البيان و التبيين»:

١. البيان و البلاغة و قواعدهما

٢. الخطابة و اصولها

٣. عيوبِ اللسانِ مِنْ عَيٍّ و لَحْنٍ و لُكْنَةٍ و تَمْتَمَةٍ

٤. الشعر و مقاييسه

٥. رسائل و وصايا

٦. نوادر الاعراب و اخبارهم.

النتيجة

خلق الجاحظُ أثرًا خالدًا و عظيمًا المُسمّى بـ«البيان و التبيين» الذى هو تحفةٌ أدبيةٌ بالإستعانةِ مِنَ الموقعِ الشخصى: الذكاء الوافر و المثابرة فى العمل، الموقعِ الجغرافية: مدينة بصره، الموقعِ التاريخى: القرنين الثانى و الثالث للهجرة خاصةً عصرُ المأمون. أنَّ الجاحظَ و إن ولد فى بيتٍ فقيرٍ بالبصرةِ قَدْ تَمَكَّنَ بعدَ نموّه و ترعرعه فى مسقط رأسه و لرغبةِ الاكيدةِ فى الدراسة، تَمَكَّنَ مِنْ إنتقاله إلى دارالخلافةِ بغداد، فتتلمذ هناك على

علماء كبار في العلم و الأدب و خلق مآثر أدبية هامة بمؤازرة الوزراء العظام آنذاك (مهري نژاد، ١٣٩٠: ١٣).

الجاحظ هو أديبٌ فيلسوف، متكلم، عالم اجتماعي، أحيائي، مؤرخٌ و مؤسس علم البلاغة. هو عبقرىٌ و أديبٌ تامٌ استمدت من الفكاهة و العمل الدؤوب في نثره المشوّش، و جمع الجدّ و الهزلَ دفعةً واحدةً و حصلَ على شخصية خالدة عالمية بصفة امير النثر العربي. علم البلاغة من أهمّ مواضيع كتاب «البيان و التبيين»، نثره سهلٌ، شفافٌ، طبيعيٌ، بعيدٌ عن التكلف، صريح، مسجّع، موزونٌ، يمتازُ بصنعة الاعتراض، مثل ابقاك الله، اعزك الله. يمتازُ نثر الجاحظ من الخصائص التي لم يسبق قبله و هي امتزاج الجدّ بالهزل، استمداده من اسلوب الخطابة و المنطق الذي يظهر بواسطة صنعة «التكرار» و «المذهب الكلامي»، قصر الفقر و اتزان العبارات و يمتازُ بالموسيقا، الافتنان في الاسلوب، الاستطراء، الاستقصاء في البحث. هذه الخصائص كلّها جعلت *الجاحظ* كاتباً فريداً وحيداً مخترعاً مبدعاً.

المصادر و المراجع

- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر. ١٩٤٨م. **البيان و التبيين**. شرح عبدالسلام هارون. بيروت: دارالفكر.
- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر. ١٩٩٨م. **كتاب الحيوان**. شرح محمد باسل عيون السود. بيروت: دارالكتب العلمية.
- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر. ٢٠٠٤م. **رسائل الجاحظ (الرسائل الأدبية)**. شرح على بوملحم. بيروت: دارالمكتبة الهلال.
- الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر. ٢٠٠٦م. **المحاسن و الأضداد**. شرح صلاح الدين الهوارى. بيروت: العصرية.
- جبر، جميل. ١٩٥٩م. **الجاحظ فى حياته و أدبه و فكره**. بيروت: دارالكتاب اللبنانى
- حسين، طه. ١٩٨٢م. **من تاريخ الأدب العربى**. بيروت: دارالعلم للملايين.
- الحموى، ياقوت. ١٩٩٩م. **معجم الادباء**. شرح عمر فاروق الطباع. بيروت: مؤسسة المعارف.
- الزيات، احمد حسن. لاتا. **تاريخ الأدب العربى**. بيروت: دارالثقافة.
- الفاخورى، حنا. ١٩٨٧م. **تاريخ الأدب العربى**. بيروت: المكتبة البولسية.
- قيروانى، ابن رشيق. ١٩٨١م. **العمدة**. شرح محمد محى الدين عبدالحميد. بيروت: دارالجيل.

المقالات و الرسائل

- حريزى، فيروز . سيده رقيه مهري نژاد. بهار ٩٠. «علم الدلالة للألفاظ العربية فى البيان و التبيين عند الجاحظ». فصلية دراسات الأدب المعاصر. جامعة آزاد الإسلامية جيرفت. السنة ٣. العدد ٩. صص ٩-٢٤.
- مهري نژاد، سيده رقيه. ١٣٩٠هـ. ش. «معنى شناسى واژگان عربى در البيان و التبيين». پايان نامه دكتورى رشته ادبيات عرب. دانشكده زبان و ادبيات. دانشگاه آزاد اسلامى. واحد علوم و تحقيقات.